

لا تجلس معهم !!

عجب الجريري لهذا الرجل الزاهد ، الذى يلزم جامع بغداد ،
لا يكاد يفارقه لحظة واحدة ، وكأنما بينه وبين المسجد نسب لا تنفصم
راه ، وصلة وثيقة دونها كل الصلات ، لأنها صلة القرب الخالص ، والصفاء
غامر ، والإقبال على الله القادر ، فى خير البقاع ، وأطهر الأماكن .. فى المسجد
بيث تنزل الرحمت ، ويتصل العبد بربه ، فيناجيه ، ويتوجه إليه بقلبه
نجاهها يظهر كوامن عبوديته ، وخفى خضوعه لخالقه ، ومستور عجزه ومبالغ
حتمياجه لقدرة بارئ السموات والأرض .. فى المسجد حيث تجتمع
لأجساد ، وتتلاصق الأبدان ، وتتطامن الرقاب ، وتسجد الجباه على
لأرض .. على مواطئ الأقدام ، إقراراً بالضعف والذلة ، لله وحده
ون سواه .. .

وأخذ الجريري يطيل النظر إلى هذا الزاهد المتصوف ، الذى تبدو
ليه علامات الفقر والاحتياج ، والمسكنة والمسغبة ، وهل أدل على هذا من
لك الثوب الخلق ، الذى لا يفارق بدنه بحال من الأحوال ؟ إنه يرتديه
، أيام الربيع الوداع ، حيث النسفات الرخية العلية ، تشرح الصدر ، وتملاً
نلب بهجة وسروراً ، والفؤاد مرحاً وحبوراً .. ويرتديه فى الخريف حين
أزم الجو ويعبس ، ويضيق الصدر ، ويعتريه الهم والكرب .. ويرتديه

فى السكون كله ، إلا من نسمة تهب بين الحين والحين ، فىنشرح لها الصدر
أو شربة باردة على الظمأ ، فتبتل بها العروق .. ويرتديه فى الشتاء ، حيث
يفتك زمهريره بالأبدان ، ويرهق الجسوم أدواء وأمراضا ، فلا يكاد ينجو
من شره جسم ، أو يبقى بمعزل من ضره بدن .. !!

سبحانك اللهم ! أودعت جسوم المترفين القادرين ، أنواعا من
الأمراض لاحصر لها ، وألوانا من الأدواء لاعلم لأحد بها ، حتى كان لهم
فى الصيف ثياب ، وفى الشتاء ثياب يتيهون بها على الفقراء والمعوزين عجبا
وزهوا ، ويدئون بها على المساكين والمحتاجين بطراً وأشراً ، ولا يجدون
فيها دوافع شكر المنعم عليها ، بل عميت منهم القلوب ، وطمست البصائر ،
فاندفعوا مع الغرور الآثم ، والحق الكاذب ، يختالون كالطاووس ، ويزهون
كالهدد .. !!

سبحانك اللهم ! حفظت جسوم الفقراء والمساكين من قواصف الريح
وفاتك البرد ، وقاسى الزمهرير ، وكأنما لتضرب للناس أروع العظام ، تبقى
خالدة على مدى الأيام ، اعلم من لم يكن يعلم ، أَنَّ مَا يُصِيبُكَ لَمْ يَكُنْ
لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا يُخْطِئُكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَأَنَّ مَا فى الدنيا لا يمنع
عنا شيئا يريد الله أن ينالك .. !!

وهزّ الجريرى رأسه عجبا ودهشة ، واعتزم أن يدرك سر هذا الرجل
صاحب الثوب الواحد ، والذي يعيش به ، لا يرجو غيره ، ولا يطمع فى سواه

وسئل الرجل الزاهد ، صاحب الثوب الواحد : لم لا يرتدى غير هذا الثوب ، الذى لا يفارقه صيفاً ولا شتاء ؟

فروى قصته ، وفى عينيه حزم وصرامة ، وعلى وجهه نور ! قال : كنت مولعاً بالثياب ، أنخير أغلاها وأجملها ، وأنتقى أنسبها للفصل الذى أكون فيه ، فللشتاء ثياب مختلفة ، كلها تهدف إلى غرض واحد ، وهو الوقاية من البرد ، وإن اختلفت أنواعها وألوانها ، وللصيف ثياب رقيقة هفافة ، حتى تملكنى هذا الحب ، وسيطر على ، وخشيت حيناً أن يصرفنى عن عبادة الله ، وأن يبعدنى عن الحضرة القدسية ، ولكنى لم أجد مدعاة لهذا القلق ، فأنا أعرف أن الإسلام جميل فى كل نواحيه ، يحب الجمال فى كل شيء ، وأن ما أولعت بحبه لا حرج فيه ولا إثم ، وإنما هو حلال أحله الله ، ورضى عنه ، وأباحه لعباده ، ما دام لا يورثهم السكر والخيلة ، ولا يفسد نفوسهم وضمائرهم ، ويغير قلوبهم ، فتصبح كدرة ، كلها السخيمة والرياء الكاذب ، والخداع المقيت .. !!

أعلم هذا حق العلم ، وأعلم كذلك أن الشيطان ينتهز هذه الفرص ، فيدخل إلى قلب ابن آدم ، يعميث فيه فساداً وإرهاقاً ، ويفسد النيات ، ويقضى على دوافع الخير فى الإنسان ، ويعود بها إلى الشر الماحق ، والضلال المبين ، فلا يجد المطيع له ، والمندفع معه خيراً يوم القيامة ، بل يصبح من الخاسرين الآثمين .. !!

التي تلفت النظر ، وتسترعى الانتباه ، فظلات على هذه الحال مدة طويلة
كنت أشعر خلالها بلذة وممتعة ، فأنا من الذين لا يهمهم أن يتمتعوا بالطعام
الذيذ ، بقدر ما يملك عواطفهم ، ويأسر قلوبهم الملبس الجميل ، والشوب
النظيف ، حتى يكاد يرقص له بدني فرحاً وسروراً ، ويهتز له قلبي مرحاً
وحبوراً ، وخشيت عاقبة هذا الحب ، فهو في نظري حب للدنيا مهما
اختلف فيه القائلون ، ووصفه الواصفون ، ومهما كان مباحاً لإثم فيه ،
لأنه مظهر من مظاهرها ، وباب من أبوابها ، ولهذا تمنيت أن ينزع الله من
قلبي حب هذه الثياب . .

وآويت إلى فراشي ذات ليلة ، وأنا على حال عجيبة من الكرب
والضيق الشديد ، والتفكير الملح ، والألم العميق ، ولست أدري سبباً لهذا
كله ، ولا داعي للإغراق فيه ، ومن عادتي أن أدع الأمور لله ، يصرفها كما
يهوى ، ويحكم فيها بما يريد .

وسبحت روحي في عوالم رحيبة ، وانطلقت من أسارها ، فرأيت
فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة التي وعد الله المتقين ، فكدت أطيّر من
الفرح والمرح ، وأحسست بالسعادة الغامرة تتملكني وتسيطر على ، وتأخذ
على كل طريق ، وكيف لا ، وهذه هي أحب نهاية ينتظرها المسلم ، ويرغب
فيها المؤمن ؟ ! فهي موطن النعيم الأبدى والسعادة الأخروية ، ويكفي أن
الله سبحانه وتعالى جعلها موطن كرامته ، ومحل رضوانه ، يتكرم فيها على
عباده بالرؤية ، ويتجلى عليهم فتكون هذه اللحظات الكريمة أسعد ما رأوا

وزاد سرورى ومرحى ، حينما طوّفت هنا وهناك ، فأبصرت جماعة من إخواننا الفقراء الذين يسعد بهم القلب ، وتطمئن لهم النفس ، وتطرب بهم الروح ، لما فى القرب منهم من السعادة ، والإقبال على الله سبحانه وتعالى ، فهم جنوده فى الأرض ، يرفعون راية الحق ، ويعلمون كلمة الله ، ولا يرضون به بديلاً . هم نور الدنيا ، وخير ما فيها من كائن ، قاوموا النفس والشيطان فخلصت لهم أرواحهم طاهرة ، ونفوسهم ذكية ، وقلوبهم نقية ، لم يعبت بها شيطان أثيم !!

كانت هذه الجماعة تلتفّ حول مائدة جميلة ، عليها من أطيب الطعام كل ما تشتهي النفس ، ويلتذ به اللسان ، ويتمناه الإنسان ، فلم أترأخ أو أبطئ ، بل سرعان ما أقدمت عليهم ، وأنا أكاد أطير من الفرح والسرور ، وخيل إلىّ فى هذا الوقت أن هذه مائدة قدسية ، فيها من الأسرار العظيمة ، والبركات الوفيرة ، ما تهفوله قلوب المؤمنين . .

وما كدت أجلس معهم ، حتى فوجئت بما لم يكن فى الحساب ، وما وقعت من جرائه فى دهشة وعجب وحيرة ، وفغرت فى عجبها وألمّا ، ولكنى لم أقل شيئاً . . وماذا أقول ، وقد أقبل إلىّ جماعة من الملائكة فى سرعة خاطفة ، وأخذوا بيدي فى قوة ، وأقامونى . . ! ؟

يا الله ! لماذا أطرّد وأبعد عن هؤلاء الأصدقاء والإخوان ؟ إنهم

كلما التقينا ، فى أى مكان ، فلماذا يحال بيننا على هذه الصورة الحازمة ،
التي لا تقبل نقاشا ولا توانيا ؟ !

* * *

لقد احتقرت نفسى حينذاك ، ورجعت بذا كرتى إلى سالف الأيام ،
أقلب الطرف هنا وهناك ، فإذا بكل أعمالى كما عهدتها ، إخلاصا لله ،
ومجاهدة للنفس ، وبعداً عن النفاق والرياء ، والكذب والخداع ، فلماذا
أبعد عن هؤلاء الأصدقاء الصالحين ، على هذه الصورة الحازمة ، بلا رحمة
ولا إشفاق ؟

ترى هل خالط عملى رياء أو نفاق ، فأودى به ذلك ، من حيث
لاعلم لى به ، ولا دخل لى فيه ؟ إذا كان هذا فلا تبعه على ، ولا مسئولية ،
فلمست أطالب بما لايدخل فى الطاقة ، وليس فى وسعى امتلاك زمام الأمر
فيه ، فكيف إذن أبعد عن هؤلاء ، وأطرد على هذه الصورة القوية
الحازمة ، التي تصدع لها بدنى ، وتهدم جسمى ؟ !

وألمنى الله سبحانه وتعالى ، أن أقول لهذه الجماعة من الملائكة
فى ضراعة وإخلاص :

— إن هؤلاء أصحابى .. إنهم من الفقراء الذين أدركوا قيمة الحياة ،
وأقبلوا على الله مخلصين له العبادة أيما إخلاص ..

الملائكة سرحمون ضعفي ، وسيتركونني أسعد مع أصحابي بالأكل من هذه
المائدة ، وبخاصة وأن أيديهم لم تمتد إليها ، إلى الآن . . . ولكنني كنت
واهماً في هذا الرأي . . . إنه خيال كاذب ، وهم خاطئ ، فهم مأمورون
دون ريب ، وليس لهم مناص من اتباع الأمر ، وتنفيذ الخطة المرسومة ،
التي أمرهم بها رب العزة ، ولهذا قالوا لي :

— هؤلاء أصحاب ثوب واحد . . . وأنت لك قميصان . . .

وذهلت حينما استمعت إلى هذا الكلام ، وعدت بذكري إلى أيامي
في الدنيا ، وإلى عشقي للملابس ، وحبّي الشديد للثياب ، ورغبتى الملهمة
في التلذذ بهذا الضرب من ضروب المباح . . . !!

إذا كان للعامة من الناس أن يتمتعوا كما يشاءون بأنواع المباح ،
يأخذون منها بكل ضرب ، فلا يليق بالفقراء الذين وضعوا نصب أعينهم
الزهد في الدنيا ، والرغبة عن لذائذها ، وانصراف عن كل ما يشغل القلب
بغير الله . . . لا يليق بهؤلاء أن ينهلوا من المباح ، بما يشعرون باللذة البدنية ،
والمتعة الجسمية ، لأن هذا ليس في حساباتهم ، ولا يصح بحال من الأحوال
أن يكون من أهدافهم ، ولهذا علمت أن البلاء دخل إلى من ناحية هذا
المباح وصدق حدسي ، إذ طالما خشيت أن تكون رغبتى في كثرة الثياب
سبباً في حرمانى من رضا الله ، وباباً من أبواب الشر والسوء . . . !!

وما كدت أفيق من ذهولى ودهشتى ، حتى سمعت جماعة الملائكة

— لا تجلس معهم .. !!

لا تجلس معهم ؟ ! يا الله ! أهكذا أحرم من خيرة الأصدقاء ، وأطرد
من خير المجالس ؟ وأبعد عن صفوة رجال الله ؟ !

* * *

وحدث الله سبحانه وتعالى ، حينما انتبهت من نومي ، وعلمت أن
ما حدث لم يكن حقيقة ، بل كان حلمًا عابرا ، ورؤيا .

ولكني مع هذا نذرت ألا ألبس إلا ثوباً واحداً ، إلى أن ألقى الله
تعالى .. صيفاً وشتاء ، فليس بي حاجة بعد هذا الحلم إلى كثير الثياب ،
وعديد الملابس ..

وصمت الزاهد ، وقد بدت عليه علائم التفكير ، وأدرك الجري
السر الذي طالما اشتاق لمعرفته ، وارتفعت في عينه منزلة هذا الزاهد الفقير ،
وتمنى أن يسير سيرته ، وينهج نهجه .. !!

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه تم طبع
كتاب [صور دينية] مصححاً بمعرفة لجنة
من العلماء برياسة : الشيخ أحمد سعد علي .

الفاخرة في { ١٧ محرم سنة ١٣٦٨ هـ
١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨ م }

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران
مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي